عائلة طوبيا البار

الأب أيوب شهوان

مقدّمة

لدى قراءة سفر طوبيا، تمرّ أمام ناظريك لوحات متنوّعة، وكأنك أمام كلّ غنى الله الذي أفاضه على الإنسان، من بركات، وخيرات، ومعرفة، وحكمة، من حبٍّ للصلاة والعبادة، وغير ذلك ممّا يبدعه المخلوق على صورة الله ومثاله. من خلال تعدُّد الأنواع الأدبيّة والموضوعات التي يزخر بها سفر طوبيا، هناك تعليم وحكمة وإرشاد، والهدف هو أبدًا فلذة الكبد، هو المؤمن الناشىء الذي ما زال غير مدرك، كما الجاهل الذي لا يعرف. الخبر في السفر يضحي وسيلة لاكتشاف ما يريده الله وما يعلّمه، والأحداث فيه حافزٌ للتفكير والتعمّق والاتّعاظ، يتمرّس القارئ انطلاقًا منها على فهم ما حصل وما هو حاصل، وعلى تبيّن مخطط الله الخيّر والخلاصيّ. عائلة طوبيا في هذا الإطار هي هكذا مكان تجلّي المخطط المذكور، تمثيلاً لنا وللأجيال المتعاقبة من القارئين المؤمنين، فتختصر بالتالي في حياتها عائلةَ شعبِ الله الكبرى.

١ – عائلة طوبيا صورةُ عائلات بيبليّة

يستوحي سفرُ طوبيا أسفارَ الكتاب المقدّس ليعطي تعليمه لأبناء شعبه، فتتبدّى من خلاله صورةُ العائلة التي تتفيّأ في ظلال العليّ وتعيش برضاه. نتبيّن ذلك من بعض الأمثلة التالية:

١/١- عائلة على مثال عائلات من سفر التكوين

– تحمل ساره امرأةُ طوبيا اسمَ امرأة إبراهيم؛ وَجَدَها زوجُها، كما وجد من قبل كلٌّ من إسحق ويعقوب زوجتَه.

– اعتبر طوبيا ابنَه ضائعًا أو حتّى مائتًا، كما اعتقد يعقوب من قبل أنّ وحشًا برّيًّا قتل ابنَه يوسف.

– لم تُرزَق ساره امرأةُ طوبيا بأولاد، كما قبلاً ساره امرأة إبراهيم، لكن بعد زيارة الملاك لذوي ساره برفقة طوبيا رُزقت هذه الأخيرة، كما ساره امرأة إبراهيم قبلاً بعد زيارة الله لزوجها في مَمْرَا.

– هناك تشابه واضح بين قصّة طوبيا وبين تك ٢٤: ١ي؛ ٢٩: ١ي، من حيث المفردات والعبارات؛ فهناك لقاء (طو ٧: ٣–٤؛ تك ٢٩: ٤–٦)، وحبّ (طو ٦: ١٩؛ تك ٢٤: ٦٧)، وعقد زواج (طو ٧: ١٢–١٣؛ تك ٢٤: ٣٢، ٥٠–٥١).

– يتنقّل المنفيّون أيّام طوبيا من مكان إلى آخر (طو ٤: ١٢)، كما تاه الآباء قبلاً في أرض غريبة، لكن الله سيكون مع المنفيّين وينقذهم (طو ١٤: ٧)، كما حفظ قبلاً الآباءَ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ.

٢/١- طوبيا في خطّ الأنبياء

شكّل كلامُ الأنبياء دعمًا ثمينًا لطوبيا في فهم مصيره ومصير إخوته في المنفى:

– هكذا تذكّر طوبيا أورشليمَ ومَلِكها على ضوء وعد الله لداود على لسان ناتان النبيّ (طو ١: ٤؛ ٥: ١٤).

– يرى طوبيا أنّ ما يعانيه وإخوته من ضيق هو تنفيذ للعقاب الذي أعلن عنه عاموس النبي لبني إسرائيل الأثمة.

– عندما أصيب طوبيا بالعمى انتابه شعورٌ أنّ كلّ شيء انتهى، لكن الله لم يدع مختارَه في هذا الوضع، بل شفاه جاعلاً منه شبيهًا للأنبياء، كي يدعو الأمّة إلى التوبة، ويَعِدَها بالخلاص، كما سبق وجاء على فمّ الأنبياء (طو ١٣: ١ي).

– تحقيقًا لنبوءة ناحوم على نينوى (نا ٢: ١ي)، رجع المنفيون وبنوا الهيكل من جديد، وعادت أورشليم قبلة كلّ شعوب الأرض (طو ١٣: ١٠–١٨؛ ١٤: ٣–٧).

٣/١ – عائلة تتزيّن بالحكمة

عائلة طوبيا وساره، هي أيقونة بيبليّة **حكميّة** ملفتة، نتبيّن من خلالها قصّة عائلة في مولدها وفي نُضجها، عائلةٍ مُدرَجة في قصّة سلالاتٍ، هي بدورها في أساس سلالة جديدة، اتّصفت بما أغدقه الله عليها من فطنة ومعرفة وفهم. فطوبيا الزوج لا يخضع لحماقة فاهت بها امرأته، كما فعل من قبل أيوب الذي وصف كلام زوجته بأنّه "كلام إحدى الحمقاوات"؛ وطوبيا الأب يوجّه ابنه ويرشده ليُحسن السير على دروب الحياة، فإذا العائلة منوّرة الخُطّى، وسالكة في مسالك تضمن لها البلوغ إلى السعادتَين، الأرضيّة والعُليا.

٢ – روحانيّة زوجيّة وعائليّة

تشكّل قصّة طوبيا وساره طريقًا **لروحانيّة زوجيّة وعائليّة**، ابتدأت في بيتٍ، ومائدَتين، وثلاث خبزات، لتبلغ بعد ذلك الكثير من البيوت:

– هو "**بيتٌ** بُنِيَ على الصخرة"، إذ لدينا أمام ناظرَيْنا عائلتَان، طوبيط وحنّة، من جهة، وطوبيا وساره، من جهة أخرى، مقتنعتان في العمق أنّه، "إنْ لم يَبنِ الربّ البيتَ، فعبثًا يتعب البنّاؤون" (مز ١٢٧)، وهذا ما جعل من الاثنتين عائلتَين بنّاءَتَين ومثاليّتَين.

– وفي هذا البيت هناك **مائدتان**، مائدة **الخبز** اليوميّ، ومائدة **الكلمة** التي لا تزول. فالعائلتان، بالإضافة إلى أنّهما تغتذيان من مائدة الخبز الذي تحصّله بعرق الجبين ولكن من جود الله، تغتذيان أيضًا من الوليمة الروحيّة، مائدة الكلمة، التي تنمي في المعرفة والحقّ والمحبّة. لذلك تتحوّل قصّتهما إلى كلمة ملهَمَة ومُلهِمَة، كلمةُ وحيٍ وكلمة حياة.

– أمّا **الخبزات الثلاث** فهي خبز الشكران، وخبز الفقراء، وخبز المحبّة؛ ففي بيت طوبيا يرتفع الحمد والشكران للواهب بلا حدّ، لكثرة ما يتوفّر فيه من خبز العناية الإلهيّة، الأمر الذي جعل من طوبيا الأب صورةً حيّةً عن أبوّة الله الذي يحنو على الفقير واليتيم والأرملة والغريب، ودفعه إلى الاهتمام بأن يمدّ الفقراء بالخبز المُحيِي. إنّه خبز المحبّة الذي، وبفعل الروح، عاشته العائلتان كعطيّة للذات، كمحبّة سخيّة، وكفعل شكران لا ينقطع.

٣ – عائلة قداسة

إنّ سفر طوبيا، ومن خلال الأحداث التي يورد، يجعل **قداسةَ العائلة** محوريّة ومركزيّة، كاشفًا أنّ الزواج الذي يباركه الله هو مكان تجسّد القداسة، وبالطبع بدايةُ خلاصٍ من الشرّ، ولقاء حميم بالقدوس. وكما في البدء سبّبت حواء، ومن بعدها آدم، الشرَّ في العالم، هكذا يبدأ الرجل والمرأة، في اتحادهما الذي يباركه الله، تكريسًا جديدًا لكلّ الخليقة بالقداسة. من هنا الأهمّيّة التي اكتسبها في الوحي الإلهيّ موضوع الزواج، مع تأكيدنا على أنّ الزواج هو العلامة الأكثر شفافيّة لوحدة الانسان مع الله، وهذا ما يتجلّى في عائلة طوبيا.

يبيّن سفر طوبيا **قداسة العائلة**، قداسة العروسين الشابّين، طوبيا وساره، وقداسة ذويهما. تشهد الأحداث أنّ طوبيا وساره كعروسين، يُدرجَان في تاريخ خلاص عائلَتَي المَنشَأ : في عائلته هو، وفي عائلة الزوجة.

٤ – عائلة يمتحنها الألم

هاتان العائلتان، مع كونهما أمينَتَين للربّ ولشريعته، وتبذلان الكثير في سبيل الإخوة من شعبهما، لم تَنجوَا من **امتحان الألم** الجسديّ كما المعنويّ.

فطوبيا الأب **اضطُهِدَ**، **وسُبِيَ** بسبب أعمال الرحمة تجاه إخوته في الإيمان، وفي الوقت عينه تذوّق فرحَ العودة إلى البيت، مع الزوجة والابن. ولكن، تحديدًا بعد القيام بفعل محبّة، حَدَثَ له أن أصبح أعمى، وتبع ذلك الوقوع في ضيق اقتصاديّ. إلى هذه المحنة المتشعّبة، أُضِف وجعًا آخَر معنويًّا سبّبته ردّة فعل الزوجة، التي شعرت بالمساءة وبالقهر بسبب موقف زوجها، فوبّخته على أمانته الدينيّة المتصلّبة، معتبرةً إياها سببَ المصاب الذي حلّ بهما. لكنّ ألم طوبيا، وهو الذي لم يتزحزح يومًا قيد

أُنمُلةٍ عن إيمانه الراسخ، لم يَحُلْ دونَ استجماع قواه وتوبيخ شريكة حياته التي، لولا حزمه وحسمه للأمر، لَصارت شريكة الكفّار والحمقى.

كذلك **امتُحِنَت عائلة ساره** الامتحان الموجع بوفاة كلّ من كان يقترن بها بُعيد الزواج.

لكن هذه الاحداث المؤلمة كلّها، وأوقات الامتحان التي لم تكن نادرة، عاشتها العائلتان بثقة بالله، وسيكون يومٌ تتحوّل فيه بالتأكيد إلى مجد.

٥ – عائلة قدوة في الرجاء

عائلة طوبيا هي صورة متكاملة عن الحياة اليوميّة، حيث نشهد المجريات العائليّة، والأحداث الوطنيّة، والصعوبات المضنيّة، والآلام المبرِّحة، والمآسي التي قد تحلّ بهذه أو تلك من العائلات، وصولاً إلى أقساها، كالنفى والإبعاد عن الأرض والبيت والأحبّة، ثمّ العودة إلى الوطن، وكابتعاد الابن عن أبيه، ثم عودته إليه، والتئام الشمل من جديد، وكالسفر للزواج والاستعداد للزفاف وحصول ذلك، وكالمرض ثمّ الشفاء، وكالبؤس ثمّ البحبوحة، الخ. من كلّ ذلك يتعلّم المؤمن أنّ طريق الرجاء هي الخيار الأفضل لأنّه يشيل الممتحَن من الضيق، ويحمله على أجنحة الأمل والثقة بخلاص يأتي.

هكذا عجائب الله التي يخبرنا عنها السفر، هي دَفع غير عاديّ باتجاه الرجاء المُعطى من العلاء. فبينما كان طوبيا يقاسي الأمرَّين في الأرض الغريبة، وفي حين كانت ظلمة عينيه تمتحن رجاءَه الذي لم يتزعزع، إذا بيد القدير تردّ إليه البصر، هو الذي حافظ على المستوى الأعلى في البصيرة، فعادت إليه سعادته بعد أن ردّ رفائيل الملاك البصر إليه، كما عادت أيضًا إلى ساره زوجته، بعد أن خلّصها رافائيل من الشيطان. هكذا جعلاَ من عائلتهما عائلة صلاة وتضرّع وعبادة، فكان انتهاء الشقاء الخاصّ صورةً مسبقة عن انتهاء شقاء شعب الله ومدينته أورشليم.

٦ – عائلة بفضل الله

يتدخّل الله في حياة طوبيا وابنه، هو القدير وحده، الذي يعتني بأبناء شعبه الذين في الضيق. فكما أنقذ طوبيا من العمى، كذلك أنقذ ساره ممّا كان يحلّ بها بعد كلّ زواج، فتذوّقت بعد ذلك السعادة المعطاة من العُلى، وكأنّها عجزت في كلّ الزواجات السابقة لتنجح في الزواج من طوبيا ابن عشيرتها دون سواه.

ويبدو لنا هنا أنّ ما أصاب طوبيا وكأنّه ضمن تصميم الله، وذلك لكي يرسل ابنه إلى راجيس، ولو لم يفعل لَمَا تعرّف هناك إلى ساره. لقد تدخّل الله في حياة طوبيا، كما قبلاً عندما التقى أليغازر خادم إبراهيم رفقةَ على بئر الماء (تك ٢٤: ١٧ي)، ويعقوب عندما التقى راحيل (تك ٢٩: ٩ي)، فأرسل ملاكه ليفكّ ساره من قيود الشيطان، ويشفي طوبيا من عماه.

٧ – عائلة يضربها الشيطان

مقابل الملاك رفائيل ودوره الخَيّر، نجد في سفر طوبيا الشيطان (طو ٨: ٣) تحت اسم "أزمودواوس" (٣: ٨)، يُحِلُّ الشرَّ بالناس؛ إنّه الروح الشرير الذي دفع حواء ثمّ آدم إلى ارتكاب المعصية (تك ٣: ١)؛ هو الذي أغوى آحاب، فصعد إلى راموت جلعاد ومات هناك (١ مل ٢٢: ٢١)؛ هو الذي ضرب أيوب بالويلات ليدفعه إلى التجديف على الربّ؛ وهو الذي غرّر بداود ليجري إحصاء لبني إسرائيل (١ أخ ٢١: ١ي؛ رج ٢ صم ٢٤: ١ي).

نتبيّن من هذه الوقائع أنّ دور الشيطان هو إنزال الأذى بالناس، على عكس دور ملاك الله رفائيل، مع الإشارة إلى أنّه لا يستطيع أن يُلقي الأذى بالناس دون إذن من الله، كما يتّضح ذلك من قصّة أيوب (رج أي ١: ١٢؛ ٢: ٦). في سفر طوبيا، يقيّد رافائيلُ الشيطانَ في برّيّة مصر، حائلاً دون إلحاقه الأذى بالناس، ويصلح ما أفسده. لقد نجح طوبيا في أن يجعل هذا الأخير يغرب ويبتعد، وذلك عن طريق حرق كبد وقلب السمكة التي أتى بها، ممّا جعل الشيطان يهرب إلى مصر (٨: ٣) بسبب رائحة الحريق ودخانه.

٨ – عائلة يرافقها ملاك الربّ

يرسل الله ملاكه إلى مختاريه وإلى شعبه ليحمل إليهم خبرًا أو بشرى بخلاص، أو غير ذلك. فلقد صلّى طوبيا وصلّت ساره، فأرسل الله رافائيل ملاكه ليشفي الأوّل من العمى، ويحرّر الثانية من الشيطان القاتل.

وكما أرسل الربّ ملاكه أمام أليعازر عبدِ إبراهيم، فيَسَّر له المهمّةَ الملقاةَ على عاتقه، ونجح في إيجاد زوجة لابن مولاه من بلاد أرام (تك ٢٤: ٢٧–٤٠)، وكما سيّر ملاكه أمام شعبه (خر ٣٣: ٢–٣)، كذلك أرسل رفائيل فرافق طوبيا في سفره (طو ٥: ١٣)، وأنقذ ساره من الشيطان (طو ٦: ١ي).

وتدخّل أيضًا فرفع إلى الربّ صلاة طوبيا، وحمل إليه الشفاء من العلاء (طو ١٢: ١٢–١٣)؛ هذا ما كشفه عَزَريا الذي رافق طوبيا في سفره عندما قال له: "أنا رفائيل الملاك أحد السبعة الواقفين أمام الربّ، والحاملين إليه صلوات القدّيسين (طو ١٢: ١٥).

٩ – عائلة وفق قواعد دينيّة وخُلُقيّة

يتميّز واضع سفر طوبيا بمعرفةٍ جيّدة لتوراة موسى ولحكمة أحيقار. هذا ما نتبيّنه من نصائح طوبيا لابنه طوبيا (٤: ٣–٢١؛ ١٤: ٨–١١).

فلقد قادت **مخافةُ الربّ** طوبيا في سُبُل الحقّ (١: ٣)، وسيّرت خطاه في طريق الحج إلى أورشليم (١: ٦)، وقادته باتجاه بني قومه المقهورين، فواصل **دفن موتاهم** بالرغم من تحريم الملك لذلك، ممّا

أدّى إلى تجريده من أمواله، وهَرَبِهِ عاريًا مع امرأته وابنه (١: ١٩ي). لقد اعتبر طوبيا أنّ الموتى المحرومين من دفنة لائقة واجبٌ تجاه نفس الميت يجب ألاّ يُحرَم منها مهما كلّف الأمر (٢ صم ٢: ١٠؛ ١ مل ١٤: ١١؛ أش ١٤: ١٩). كذلك إمداد أهل الميت النائحين على قبور موتاهم بالطعام شكّل في نظر طوبيا فعلَ تعزيةٍ توجبه الأدبيّاتُ الإنسانيّة والقناعاتُ الدينيّة.

من ناحية ثانية، اعتنق طوبيا أسسًا دينيّة ثلاثةً في حياته، ألا وهي: **الصلاة والصوم والصدقة** (١٢: ٨-٩)؛ هذا ما لقّنه لابنه بقوله له: "إن كان لك الكثير فابذل كثيرًا؛ وإن كان لك القليل، فاجتهد أن تبذل القليل عن نفس طيّبة" (٤: ٨).

أمّا بالنسبة إلى **الزواج**، فإنّ مواقف طوبيا وأقواله مشبعة بالسمو وبالنظرة الحميدة إلى هذا الموضوع، خاصّة من حيث صمود الزوجين في وجه الشهوة (٣: ١٤-١٥). في الواقع، لم تشته سارة قطّ رجلاً، فحفظت نفسها من كلّ دنس؛ وطوبيا تزوّج بلا رغبة في إشباع شهوة بل ليكون له نسل يبارك اسمَ الربّ (٨: ٧).

هذا كلّه نتيجة التزام طوبيا وعائلته **بشريعة الربّ**، على مثال الأنبياء الأمناء، حُماةِ هذه الأخيرةِ (٤: ٢-٢١)، حتّى في البلاد الغريبة حيث يمكن للمنفيّ المؤمن أن يُظهر قدرة الله ومعجزاته (طو ١٣: ٨).

وفي طو ٤: ٥-٦ يوصي طوبيا ابنه أن يذكر الربّ كلّ أيّام حياته، لأنّ من يعمل الحقّ ينجح في أعماله (٤: ٥-٦)؛ وأن يعمل الصدقة في يوم الضيق (٤: ١-٩)، لأن الصدقة تنجّي من الموت والظلمة والدينونة، وتفسح المجال لرؤية وجه الله.

كذلك شكّلت الصلاة في حياة طوبيا عنصرًا حياتيًّا أساسيًّا. فعندما ضايقته امرأته بكلامها غير الملائم، راح يصلّي ذارفًا الدموع، مفضّلاً الموت على الحياة، كما صلّى من قبل موسى وطلب الموت (عد ١١: ٥)، وكما فعل إيليا عندما شهد تنكّر بني إسرائيل للربّ، حتّى إنّهم نقضوا عهده وقتلوا أنبياءه وقوّضوا مذابحه (١ مل ١٩: ٤-١٠). وما يميّز صلاة طوبيا هي الثقة بالله والفرح والسلام.

خاتمة

لقد تبيّن لنا من خلال هذه العجالة أنّ واضع سفر طوبيا يرمي إلى التأكيد على أنّ العائلة المؤمنة قادرة على أن تعيش محافظةً على وديعة الإيمان حتّى في وسط عالم عدائيّ أو لا مباليّ، راسمًا بـــذلك لوحة بهيّة تمثّل خُلقيّة المؤمن الحقيقيّ حتّى عندما يكون في وضع الأقلية الأمينة وتحيط به أكثرية قاهرة وظالمة.

بفضل هذه العائلة "الطوبيّاويّة" المثاليّة، يبدو سفر طوبيا وكأنّه مسيرةُ نموّ روحيّ في حياة الأزواج في مستهل حياتهم الزوجيّة، وفي حياة العائلات المؤمنة بالله، الأمر الذي يجعل من هذه وتلك جذرًا لسلالة جديدة وذاكرةً لها ولكثيرين.